سلسلة الإحياء في ثوبه الجديد .

علم الكلام

(حكمه ، وبعض مسائله)

عند الإمام الغزالي

الدكتور : عمر محمد جبه جي

دكتوراه في أصول الفقه ومقاصد الشريعة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله مدبر الملك والملكوت، المنفرد بالعزة والجبروت، الرافع السماء بغير عماد، المقدر فيها أرزاق العباد، والصلاة على محمد قامع الأباطيل، الهادي إلى سواء السبيل، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فهذا بحثٌ جديدٌ في سلسلة الإحياء في ثوبه الجديد ، وهو بحثٌ في حكم تعلم علم الكلام ، و مسألة التأويل وزيادة الإيمان ونقصه وغيرها من مسائل الكلام عند حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله .

درس الإمام الغزالي رحمه الله علم الكلام على أستاذه إمام الحرمين الجويني المجدد في المذهب الأشعري ، ولكنه لم يقلده فيما أخذ منه ، بل تعمق في المذهب تعمقاً كبيراً، حتى صارت له نظرته المستقلة ، فقد وافق الأشعري في بعض المسائل وخالفه في بعضها.

ووضع الغزالي رحمه الله العديد من الكتب في العقائد وأصولها ومن ذلك كتاب **الاقتصاد في الاعتقاد** والذي بين فيه عقائد أهل السنة وفق منهج أهل الكلام والمنطق ، وفند عقائد الفرق الضالة ، ولكن ذلك الكتاب صعب العبارة حيث وضعه للمتخصصين ، ثم قام الغزالي بتلخيص ذلك الكتاب في الرسالة القدسية ، ولخص الرسالة القدسية في مبحث قواعد الاعتقاد .

كما وضع الغزالي كتاباً في بيان ضوابط التكفير ، والحدود الفاصلة بين الإيمان والكفر، وهو كتاب (**فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**) ، وفي ذلك الكتاب يلوم المتكلمين على مؤاخذتهم العوام بعلم الكلام، وتكليفهم إياهم بمعرفة الدلائل الكلامية، والتقسيمات المرتبة، ووصمهم للذي يجهل ذلك بنقص الدين[١].

كما انتقد المتكلمين على مؤاخذتهم العوام بعلم الكلام، وتكليفهم إياهم بمعرفة الدلائل الكلامية، والتقسيمات المرتبة، ووصمهم للذي يجهل ذلك بنقص الدين[٢].

يقول رحمه الله في فيصل التفرقة: (ومن أشد الناس غلواً وإسرافاً، طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين، وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا، ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التي قررناها فهو كافر)[٣].

فهؤلاء المتكلمون ضيقوا رحمة الله الواسعة، وجعلوا الجنة وقفاً على شرذمة منهم، متجاهلين أن رسول الله قبل إسلام طوائف من أجلاف العرب، لم يشتغلوا بعلم الدليل ولو اشتغلوا فيه لم يفهموه، فالإيمان نور يقذفه الله في قلوب عباده، وليس بالأدلة المجردة[٤].

١- ينظر: رجال الفكر والدعوة / أ- أبو الحسن الندوي / ١ / ١٦٣ – ١٦٤ / مكتبة نزار مصطفى الباز مكة / ط١ / ٢٠٠٠ وتاريخ العقيدة الإسلامية / إيمان عمر الكردي / ١١٧ / دار العصماء / دمشق.

٢- ينظر: رجال الفكر والدعوة / أ- أبو الحسن الندوي / ١ / ١٦٣ – ١٦٤ / مكتبة نزار مصطفى الباز / مكة / ط١ / ٢٠٠٠ وتاريخ العقيدة الإسلامية / إيمان عمر الكردي / ١١٧ / دار العصماء / دمشق.

٣- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة / الإمام أبو حامد الغزالي / محمود بيجو / ٧٥/ مطبعة الصباح / دمشق / ط١ / ١٩٩٣.

٤- ينظر: فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة /٧٥.

كما انتقد المتعصبين من الأشاعرة ، الذين يعتبرون الخروج عن مذهب الأشعري كفراً أو زندقةً، وطالبهم بالدليل على (أن العدول عن مذهب الأشعري، ولو في قيد شعرة كفر، ومباينته ولو في نزر ضلال وخسر)[٥].

ويطالبهم الغزالي ببيان حد الكفر لأن من زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعري، أو مذهب المعتزلي، أو مذهب الحنبلي، أو غيره، فهو غرٌّ بليد، قد قيَّده التقليد لا يمكن إصلاحه[٦].

ومع كثرة الأيام وكثرة التجارب العلمية، ازداد الغزالي اقتناعاً بأن أسلوب القرآن في الإقناع أبلغ وأنفع وأعم وأشمل للطبقات والمستويات الفكرية المختلفة، وأن علم الكلام علاجٌ مؤقتٌ ومختصٌ بمن نشأ عنده شكوك وشبهات، ولا حاجة للطبائع السليمة والعقول المستقيمة إليه [٧].

وقد كتب في ذلك كتابه **إلجام العوام عن علم الكلام** ، يقول رحمه الله : (فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء، ينتفع به آحاد الناس ويستضر به الأكثرون، بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوي، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة، ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً)[٨].

٥- المصدر السابق / ١٣-١٤.

٦- ينظر : المصدر السابق / ١٩.

٧- ينظر: رجال الفكر والدعوة / ١ / ١٦٣- ١٦٤.

٨- إلجام العوام عن علم الكلام / الإمام أبو حامد الغزالي / ٣١٥/ مطبوع ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي / دار الفكر / بيروت / ط١ / ٢٠٠٣م.

وفي هذا المبحث الذي بين أيدينا والذي هو جزء من الرسالة القدسية يناقش الغزالي رحمه الله قضيةً معضلةً كثرت الخلافات حولها وهي مسألة تعلم علم الكلام واستخدامه في مسائل العقيدة ، ويبين الغزالي الرأي الراجح بأسلوبٍ علميٍ رصينٍ ، كما يبين في هذا المبحث مذاهب الناس في تأويل الصفات ويبين مذهبه في ذلك ، كما يذكر قضية زيادة الإيمان ونقصه ، والعلاقة بين الإسلام والإيمان ، وغيرها من المسائل .

وسيجد القارئ لهذا البحث التحليل العلمي المنطقي الرصين لجميع المسائل المطروحة .

أسأل الله القبول وأن يجنبنا الزلل في القول والعمل إنه سميعٌ قريبٌ مجيبٌ .

أولاً : حكم تعلم الجدل والكلام .

ذهب **الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث** من السلف إلى تحريمه .

قال ابن عبد الأعلى رحمه الله: سمعت **الشافعي** رضي الله عنه يوم ناظر حفصاً الفرد وكان من متكلمي المعتزلة يقول: لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنبٍ ما خلا الشرك بالله خيرٌ من أن يلقاه بشيءٍ من علم الكلام .

وقال الشافعي أيضاً : حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام .

وقال **أحمد بن حنبل** : لا يفلح صاحب الكلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغلٌ ، وبالغ في ذمه حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتاباً في الرد على المبتدعة وقال له : ويحك ألست تحكي بدعتهم أولاً ثم ترد عليهم ؟ ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث ؟ .

وقال أحمد رحمه الله : علماء الكلام زنادقة .

وقال **مالك** رحمه الله : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدينٍ جديدٍ؟! ، وقال أيضاً : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء ، فقال بعض أصحابه في تأويله: أنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهبٍ كانوا .

وقال **أبو يوسف** : من طلب العلم بالكلام تزندق .

وقد اتفق **أهل الحديث من السلف** على هذا ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه وقالوا : ما سكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : (**هلك المتنطعون هلك المتنطعون هلك المتنطعون**[٩])

أي المتعمقون في البحث والاستقصاء .

واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعلم طريقه ويثني عليه وعلى أربابه فقد علمهم الاستنجاء[١٠]، وندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم[١١] ونهاهم عن الكلام في القدر وقال : أمسكوا عن القدر، وعلى هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم فالزيادة على الأستاذ طغيانٌ وظلمٌ ، وهم الأستاذون والقدوة ونحن الأتباع والتلامذة .

وذهب **فريقٌ من العلماء** إلى عدم الحظر وقالوا : إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة التي لم تعهدها الصحابة رضي الله عنهم فالأمر فيه قريبٌ ، إذ ما من علمٍ إلا وقد أحدث فيه اصطلاحاتٌ لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقه ، ولو عرض عليهم عبارة النقض والكسر والتركيب والتعدية وفساد الوضع إلى جميع الأسئلة التي تورد على القياس لما كانوا يفقهونه .

فإحداث عبارةٍ للدلالة بها على مقصودٍ صحيحٍ كإحداث آنيةٍ على هيئةٍ جديدةٍ لاستعمالها في مباحٍ ، وإن كان المحذور هو المعنى فنحن لا نعني به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ، ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء في الشرع .

---

[٩] _أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود.

[١٠] _أخرجه مسلم من حديث سلمان الفارسي.

[١١] _ أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة .

فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل ؟!

وإن كان المحذور هو التشعب والتعصب والعداوة والبغضاء وما يفضي إليه الكلام فذلك محرمٌ ويجب الاحتراز عنه ، كما أن الكبر والعجب والرياء وطلب الرياسة مما يفضي إليه علم الحديث والتفسير والفقه وهو محرمٌ يجب الاحتراز عنه ، ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه إليه .

وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظوراً وقد قال الله تعالى: ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾(النمل : ٦٤) وقال عز وجل: ﴿ إن عندكم من سلطان بهذا) (يونس / ٦٨) أي حجة وبرهان ، وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه_ إلى قوله_فبهت الذي كفر﴾(البقرة :٢٥٨) إذ ذكر سبحانه احتجاج إبراهيم ومجادلته وإفحامه خصمه في معرض الثناء عليه ، وعلى الجملة فالقرآن من أوله إلى آخره محاجةٌ مع الكفار .

فعمده أدلة المتكلمين في التوحيد قوله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ (الأنبياء : ٢٢) ، **وفي النبوة** : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ (البقرة : ٢٣) ، **وفي البعث** : ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ (يس : ٧٩) إلى غير ذلك من الآيات والأدلة ، ولم تزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجون المنكرين ويجادلونهم قال تعالى: ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (النحل : ١٢٥) .

فالصحابة رضي الله عنهم أيضاً كانوا يحاجون المنكرين ويجادلون ولكن عند الحاجة ، وكانت الحاجة إليه قليلةً في زمانهم وأول من سن دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق **علي** بن أبي طالب رضي الله عنه إذ بعث ابن **عباس** رضي الله عنهما إلى الخوارج فكلمهم فقال : ما تنقمون على إمامكم ؟ قالوا : قاتل ولم يسب ولم يغنم ، فقال : ذلك في قتال الكفار ، أرأيتم لو سبيت **عائشة** رضي الله

عنها في سهم أحدكم أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهي أمكم في نص الكتاب ؟ فقالوا : لا فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفان.

فينبغي أن يقال : كان خوضهم فيه قليلاً لا كثيراً ، وقصيراً لا طويلاً ، وعند الحاجة لا بطريق التصنيف والتدريس واتخاذه صناعة .

أما **قلة خوضهم فيه** فإنه كان لقلة الحاجة إذ لم تكن البدعة تظهر في ذلك الزمان .

وأما **القصر** فقد كان الغاية إفحام الخصم واعترافه وانكشاف الحق وإزالة الشبهة ، فلو طال إشكال الخصم أو لجاجه لطال لا محالة إلزامهم ، وما كانوا يقدرون قدر الحاجة بميزان ولا مكيال بعد الشروع فيها.

وأما **عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه** فهكذا كان دأبهم في الفقه والتفسير والحديث أيضاً ، فإن جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التي لا تتفق إلا على الندور إما إدخاراً ليوم وقوعها وإن كان نادراً ، أو تشحيذاً للخواطر ، فنحن أيضاً نرتب طرق المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بثوران شبهة ، أو هيجان مبتدع ، أو لتشحيذ الخاطر ، أو لادخار الحجة ، حتى لا يعجز عنها عند الحاجة على البديهة والارتجال ، كمن يعد السلاح قبل القتال ليوم القتال .

فهذا ما يمكن أن يذكر للفريقين .

فإن قلت **فما المختار عندك فيه ؟**

فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بذمه في كل حالٍ أو بحمده في كل حالٍ خطأٌ ، بل لا بد فيه من تفصيلٍ :

إن علم الكلام فيه منفعةٌ وفيه مضرةٌ ، فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلالٌ أو مندوبٌ إليه أو واجبٌ كما يقتضيه الحال .

وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرامٌ.

أما مضرته فإثارة الشبهات ، وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم فذلك مما يحصل في الابتداء ، ورجوعها بالدليل مشكوكٌ فيه ويختلف فيه الأشخاص فهذا ضرره في الاعتقاد الحق .

وله ضررٌ آخر في تأكيد اعتقاد المبدعة للبدعة وتثبيته في صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليها .

ولكن هذا الضرر بواسطة التعب الذي يثور من الجدل ، ولذلك ترى المبتدع العامي يمكن أن يزول اعتقاده باللطف في أسرع زمانٍ ، إلا إذا كان نشوؤه في بلدٍ يظهر فيها الجدل والتعصب فإنه لو اجتمع عليه الأولون والآخرون لم يقدروا على نزع البدعة من صدره ، بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستولي على قلبه ويمنعه من إدراك الحق ، حتى لو قيل له هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء ويعرفك بالعيان أن الحق مع خصمك لكره ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه ، وهذا هو الداء العضال الذي استطار في البلاد والعباد ، وهو نوع فسادٍ أثاره المجادلون بالتعصب **فهذا ضرره .**

وأما منفعته فحراسة العقيدة وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل ، فإن العامي ضعيفٌ يستفزه جدل المبتدع وإن كان فاسداً ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه ، والناس متعبدون بهذه العقيدة التي قدمناها إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم وأجمع السلف الصالح عليها .

والعلماء يتعبدون بحفظها على العوام من تلبيسات المبتدعة ، كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات الظلمة والغصاب ، والآن قد ثارت البدع ، وعمت البلوى ، وأرهقت الحاجة ، فلا بد أن يصير القيام بهذا العلم من **فروض الكفايات؟** ولا بد في كل بلدٍ من قائمٍ بهذا العلم مستقلٍ ، يدفع شبه المبتدعة التي ثارت في تلك البلدة ، وذلك يدوم بالتعليم ، ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم

كتدريس الفقه والتفسير ، فإن هذا مثل الدواء والفقه مثل الغذاء ، وضرر الغذاء لا يحذر وضرر الدواء محذورٌ لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر.

فالعالم الذي ينبغي أن يخصص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال :

إحداها: التجرد للعلم والحرص عليه ، فإن المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت .

الثانية : الذكاء والفطنة والفصاحة فإن البليد لا ينتفع بفهمه ، والفدم لا ينتفع بحجاجه فيخاف عليه من ضرر الكلام ، ولا يرجى فيه نفعه .

الثالثة : أن يكون في طبعه الصلاح والديانة والتقوى ، ولا تكون الشهوات غالبةً عليه فإن الفاسق بأدنى شبهة ينخلع عن الدين .

وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنفعته فينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء الخطر إذ لا يضعه إلا في موضعه ، وذلك في وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة .

مع العلم أن الحجة المحمودة في الكلام إنما هي من جنس حجج القرآن من الكلمات اللطيفة المؤثرة في القلوب المقنعة للنفوس ، دون التغلغل في التقسيمات والتدقيقات التي لا يفهمها أكثر الناس ، فحاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها ، فالقرآن والأخبار مشتملةٌ عليه ، وما خرج عنهما فهو إما مجادلةٌ مذمومةٌ وهي من البدع ، وإما مشاغبةٌ بالتعلق بمناقضات الفرق لها ، وبعضها خوضٌ فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن مألوفاً في العصر الأول وكان الخوض فيه بالكلية من البدع ، لذلك منع الشافعي وكافة السلف الخوض فيه والتجرد له لما فيه من الضرر الذي نبهنا عليه ، وأن ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما من مناظرة الخوارج وما نقل عن علي رضي الله عنه من المناظرة في القدر وغيره كان من الكلام الجلي الظاهر ، وفي محل الحاجة ، وذلك محمودٌ في كل حالٍ .

نعم قد تختلف الأعصار في كثرة الحاجة وقلتها فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك لذلك يتغير حكم إذا حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ، ونبغت جماعةٌ لفقوا لها شبهاً ورتبوا فيها كلاماً مؤلفاً ، فيصر ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه ، بل يصير من **فروض الكفايات وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة ، فمهمة علم الكلام حراسة قلوب العوام من تخيلات المبتدعة.**

ثانياً : في التأويل والمذاهب فيه .

قد يكون المعنى يفهم من اللفظ الصريح لكنه يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعه في قلب المستمع أغلب ، وله مصلحةٌ في أن يعظم وقت ذلك الأمر في قلبه .

كما لو قال قائلٌ : رأيت فلاناً يقلد الدر في أعناق الخنازير فكنى به عن إفشاء العلم وبث الحكمة إلى غير أهلها ، فالمستمع قد يسبق إلى فهمه ظاهر اللفظ ، والمحقق إذا نظر وعلم أن ذلك الإنسان لم يكن معه درٌ ولا كان في موضعه خنزيرٌ تفطن لدرك السر والباطن فيتفاوت الناس في ذلك .

وهذا النوع يرجع إلى **التعبير عن المعنى بالصورة التي تتضمن عين المعنى أو مثله** ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : **(أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول رأسه رأس حمار)**[١٢] وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون ، ولكن من حيث المعنى هو كائنٌ ، إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله ، بل بخاصيته وهي البلادة والحمق ، ومن رفع رأسه قبل الإمام فقد صار رأسه رأس حمار في معنى البلادة والحمق ، وهو المقصود دون الشكل الذي هو قالب المعنى ، وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليلٍ عقليٍ أو شرعيٍ

١٢_ أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة

أما العقلي فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكنٍ كقوله صلى الله عليه وسلم : **(قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن)**[١٣] ، إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين لم نجد فيها أصابع ، فعلم أنها كنايةٌ عن القدرة التي هي سر الأصابع وروحها الخفي ، وكنى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعاً في تفهم تمام الاقتدار .

ومن هذا القبيل في كنايته عن الاقتدار قوله تعالى : **(إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)(سورة يس : ٨٢)** فإن ظاهره ممتنعٌ ، إذ قوله كن إن كان خطاباً للشيء قبل وجوده فهو محالٌ إذا المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يمتثل ، وإن كان بعد الوجود فهو مستغنٍ عن التكوين ، ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع في النفوس في تفهيم غاية الاقتدار عدل إليها .

وأما المدرك **بالشرع** فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكناً ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر ، كما ورد في تفسير قوله تعالى : **(أنزل من السماء ماءً فسالت أوديةٌ بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً)** (الرعد : ١٧) وأن معنى الماء ههنا هو القرآن ، ومعنى الأودية هي القلوب ، وأن بعضها احتملت شيئاً كثيراً وبعضها قليلاً ، وبعضها لم يحتمل ، والزبد مثل الكفر والنفاق فإنه وإن ظهر وطفا على رأس الماء فإنه لا يثبت ، والهداية التي تنفع الناس تمكث .

وفي هذا القسم **تعمق جماعةٌ** فأولوا ما ورد في الآخرة من الميزان والصراط وغيرهما وهو **بدعةٌ** إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية وإجراؤه على الظاهر غير محالٍ فيجب إجراؤه على الظاهر.

أحياناً يُعبر بلسان المقال عن لسان الحال ، فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقاً ، والبصير بالحقائق يدرك السر فيه .

وهذا كقول القائل : قال الجدار للوتد لم تشقني ؟ قال : سل من يدقني .

١٣-أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو.

فهذا تعبيرٌ عن لسان الحال بلسان المقال .

ومن هذا قوله تعالى : (**ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين**)(فصلت : ١١) ، فالبليد يفتقر في فهمه إلى أن يقدر لهما حياةً وعقلاً وفهما للخطاب ، وخطاباً هو صوتٌ وحرفٌ تسمعه السماء والأرض فتجيبان بحرفٍ وصوتٍ وتقولان أتينا طائعين ، والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال ، وأنه إنباءٌ عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضطرتين إلى التسخير .

ومن هذا قوله تعالى : (**وإن من شيء إلا يسبح بحمده**) (الإسراء: ٤٤) ، فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للجمادات حياةً وعقلاً ونطقاً بصوتٍ وحرفٍ حتى يقول : سبحان الله ليتحقق تسبيحه ، والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان بل كونه مسبحاً بوجوده ومقدساً بذاته وشاهداً بوحدانية الله سبحانه كما يقال :

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه الواحد .

وكما يقال : هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكمال العلم ، لا بمعنى أنها تقول : أشهد بالقول ولكن بالذات والحال .

وهذا الفن أيضاً مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر في علمه ، وفي هذا المقام إسرافٌ واقتصادٌ :

فمن مسرفٍ في رفع الظواهر انتهى إلى تغيير جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها ، حتى حملوا قوله تعالى : (**وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم**)(يس: ٦٥) ، وقوله تعالى (**وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء**) (فصلت : ٢١) ، وكذلك المخاطبات التي تجري من منكر ونكير وفي الميزان والصراط والحساب ومناظرات أهل النار وأهل الجنة في قولهم : (**أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله**)(الأعراف : ٥٠) ، زعموا أن ذلك كله بلسان الحال

وغلا آخرون في حسم الباب حتى منع تأويل قوله : **(كن فيكون)** وزعموا أن ذلك خطابٌ بحرفٍ وصوتٍ يوجد من الله تعالى في كل لحظةٍ بعدد كل مكون ، حتى سمعت البعض يقول : إن باب التأويل حسم إلا لثلاثة ألفاظ :

قوله صلى الله عليه وسلم : **(الحجر الأسود يمين الله في أرضه)**[١٤] .

ومال إلى حسم الباب **أرباب الظواهر** والظن **بأحمد بن حنبل** رضي الله عنه أنه علم أن الاستواء ليس هو الاستقرار ، والنزول ليس هو الانتقال ، ولكنه منع من التأويل حسماً للباب ، ورعايةً لصلاح الخلق ، فإنه إذا فتح الباب اتسع الخرق ، وخرج الأمر عن الضبط ، وجاوز حد الاقتصاد فلا بأس بهذا الزجر ، ويشهد له سيرة السلف فإنهم كانوا يقولون : أمروها كما جاءت ، حتى قال **مالكٌ** رحمه الله لما سئل عن الاستواء : (الاستواء معلومٌ ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجبٌ ، والسؤال عنه بدعةٌ) .

وذهبت الأشعرية إلى الاقتصاد وفتحوا باب التأويل في كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه ، وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ، ومنعوا التأويل فيه .

وزاد **المعتزلة** عليهم حتى أولوا من صفاته تعالى الرؤية ، وأولوا كونه سميعاً بصيراً ، وأولوا المعراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد ، وأولوا عذاب القبر والميزان والصراط وجملة من أحكام الآخرة ، ولكن أقروا بحشر الأجساد وبالجنة واشتمالها على المأكولات والمشمومات والمنكوحات والملاذ المحسوسة ، وبالنار واشتمالها على جسم محسوس يحرق بحرق الجلود ويذيب الشحوم .

و زاد **الفلاسفة** فأولوا كل ما ورد في الآخرة وردوه إلى آلام عقلية وروحانية ولذاتٍ عقليةٍ وأنكروا حشر الأجساد ، وقالوا ببقاء النفوس وأنها تكون إما معذبةً وإما منعمةً بعذابٍ ونعيمٍ لا يدرك بالحس ، **وهؤلاء هم المسرفون** .

---

[14] _ أخرجه الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمر .

ثالثاً : في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان .

١- الإسلام والإيمان في اللغة .

الإيمان عبارةٌ عن التصديق قال الله تعالى: ﴿ وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين ﴾ (يوسف : ١٧) أي بمصدقٍ .

والإسلام عبارةٌ عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد ، وترك التمرد والإباء والعناد ، وللتصديق محلٌ خاصٌ وهو القلب ، واللسان ترجمانٌ .

وأما التسليم فإنه عامٌ في القلب واللسان والجوارح ، فإن كل تصديقٍ بالقلب فهو تسليمٌ وترك الإباء والجحود ، وكذلك الاعتراف باللسان وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح .

فموجب اللغة أن الإسلام أعم والإيمان أخص ، فكان الإيمان عبارةٌ عن أشرف أجزاء الإسلام .

فإذن كل تصديقٍ تسليمٌ وليس كل تسليمٍ تصديقاً.

٢- الإسلام والإيمان في الشرع .

لقد ورد الشرع باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد ، وورد على سبيل الاختلاف وورد على سبيل التداخل.

أما **الترادف** ففي قوله تعالى: ﴿ **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ (الذاريات : ٣٥-٣٦) ، ولم يكن بالاتفاق إلا بيتٌ واحدٌ .

وقال تعالى: ﴿ **يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾ (يونس : ٨٤).

وقالصلى الله عليه وسلم : **(بني الإسلام على خمس**[١٥]) وسئل رسول الله مرة عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس[١٦].

وأما **الاختلاف** فقوله تعالى: ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا** ﴾ (الحجرات : ١٤)، ومعناه استسلمنا في الظاهر ، فأراد بالإيمان ههنا التصديق بالقلب فقط ، وبالإسلام الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح.

وفي حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال: **(أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت وبالقدر خيره وشره فقال فما الإسلام فأجاب بذكر الخصال الخمس**[١٧]) فعبر بالإسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل .

وأما **التداخل** فما روي أيضاً أنه سئل : **(أي الإسلام أفضل؟ فقال: الإيمان**[١٨]) وهذا دليلٌ على الاختلاف وعلى التداخل ، وهو أوفق الاستعمالات في اللغة لأن الإيمان عمل من الأعمال وهو أفضلها ، والإسلام هو تسليم إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ، وأفضلها الذي بالقلب وهو التصديق الذي يسمى إيماناً .

---

[١٥] _ أخرجه الشيخان من حديث ابن عمر.

[١٦] _ أخرجه البيهقي في الاعتقاد من حديث ابن عباس في قصة وفد عبد القيس.

[١٧] _ أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث عمر .

[١٨] _ أخرجه أحمد والطبراني من حديث عمرو بن عنبسة ، وإسناده صحيحٌ.

٣- بيان حقيقة الإيمان وحكمه والرد على المعتزلة والجهمية .

وللإسلام والإيمان حكمان **أخروي ودنيوي** :

أما الدنيوي فهو إجراء أحكام المسلمين عليه .

أما الأخروي فهو الإخراج من النار ومنع التخليد ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان**[١٩]) .

وقد اختلفوا في معنى الإيمان :

فمن قائلٍ : إنه مجرد العقد .

ومن قائلٍ يقول : إنه عقد بالقلب وشهادة باللسان .

ومن قائلٍ يزيد ثالثاً وهو العمل بالأركان .

ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول :

الدرجة الأولى : من جمع بين هذه الثلاثة فلا خلاف في أن مستقره الجنة .

الدرجة الثانية : أن **يوجد القول والعقد وبعض الأعمال ولكن ارتكب صاحبه كبيرةً** ، أو بعض الكبائر فعند هذا قالت **المعتزلة** : خرج بهذا عن الإيمان ولم يدخل في الكفر بل اسمه **فاسق** ، وهو على منزلةٍ بين المنزلتين وهو مخلدٌ في النار ، وهذا باطلٌ كما سنذكره .

الدرجة الثالثة: أن يوجد التصديق بالقلب قبل أن ينطق باللسان أو يشتغل بالأعمال ومات فهل نقول مات مؤمناً بينه وبين الله تعالى؟

---

[١٩] _ أخرجه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري .

وهذا مما اختلف فيه :

ومن شرط القول لتمام الإيمان يقول هذا مات قبل الإيمان وهو فاسدٌ ، إذ قال صلى الله عليه وسلم : (يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان) وهذا قلبه طافح بالإيمان فكيف يخلد في النار .

وقد غلا في هذا طائفة **المرجئة** فقالوا : إن المؤمن وإن عصى فلا يدخل النار .

الدرجة الرابعة : أن يقول بلسانه: لا إله إلا الله محمد رسول الله ولكن لم يصدق بقلبه ، فلا نشك في أن هذا في حكم الآخرة من الكفار وأنه مخلدٌ في النار ، ولا نشك في أنه في حكم الدنيا للذي يتعلق بالأئمة والولاة من المسلمين لأن قلبه لا يطلع عليه ، وعلينا أن نظن به أنه ما قاله بلسانه إلا وهو منطوٍ عليه في قلبه .

الرد على شبهات المعتزلة والمرجئة في بيانهم لحقيقة الإيمان .

فإن قلت: فما شبهة **المعتزلة والمرجئة** وما حجة بطلان قولهم ؟

فأقول: شبهتهم عمومات القرآن.

أما المرجئة فقالوا : لا يدخل المؤمن النار وإن أتى بكل المعاصي لقوله عز وجل: ﴿ **فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً** ﴾ (الجن : ١٣) ، ولقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون** ﴾ (الحديد : ١٩)، ولقوله تعالى: ﴿ **لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى** ﴾ (الليل : ١٥) ، وهذا حصرٌ وإثباتٌ ونفي ولقوله تعالى: ﴿ **من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها وهم من فزعٍ يومئذٍ آمنون** ﴾ (النمل : ٨٩) ، و الإيمان رأس الحسنات .

ولا حجة لهم في ذلك فإنه حيث ذكر الإيمان في هذه الآيات أريد به الإيمان مع العمل إذ بينا أن الإيمان قد يطلق ويراد به الإسلام وهو الموافقة بالقلب والقول والعمل ودليل هذا التأويل أخبارٌ كثيرةٌ في معاقبة العاصين ومقادير العقاب ، وقوله صلى الله عليه وسلم : **(يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان)** فكيف يخرج إذا لم يدخل ؟!.

ومن القرآن قوله تعالى: ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾(النساء : ٤٨) ، والاستثناء بالمشيئة يدل على الانقسام .

وقوله تعالى: ﴿ **ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً** ﴾ (الجن : ٢٣)، وتخصيصه بالكفر تحكمٌ .

وقال تعالى: ﴿ **ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ (النمل : ٩٠) .

فهذه العمومات في معارضة عموماتهم ولا بد من تسليط التخصص والتأويل على الجانبين ، لأن الأخبار مصرحةٌ بأن العصاة يعذبون ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : **(ليصيبن أقواماً سفع من النار بذنوب أصابوها)** [٢٠] .

وأما **المعتزلة** فشبهتهم قوله تعالى: ﴿ **وإني لغفارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى** ﴾ (طه : ٨٢)، وقوله تعالى: ﴿ **والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ (العصر : ١-٣)، وقوله تعالى: ﴿ **ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً** ﴾ (الجن : ٢٣) .

وكل آيةٍ ذكر الله عز وجل العمل الصالح فيها مقروناً بالإيمان.

وهذه العمومات أيضاً مخصوصةٌ بدليل قوله تعالى: ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ، فينبغي أن تبقى له مشيئة في مغفرة ما سوى الشرك ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : **(يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان)**

وقوله تعالى: ﴿ **إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً** ﴾(الكهف : ٣٠) ، وقوله تعالى: ﴿ **فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ (يوسف : ٩٠).

فكيف يضيع أجر أصل الإيمان وجميع الطاعات بمعصيةٍ واحدةٍ ؟!

علاقة الإيمان بالعمل .

[٢٠] _ أخرجه البخاري من حديث أنس.

فإن قلت: فقد مال الاختيار إلى أن الإيمان حاصلٌ دون العمل ، وقد اشتهر عن السلف قولهم : الإيمان عقدٌ وقولٌ وعملٌ فما معناه ؟ .

قلنا : لا يبعد أن يعد العمل من الإيمان لأنه مكملٌ له ومتممٌ ، كما يقال: الرأس واليدان من الإنسان ومعلومٌ أنه يخرج عن كونه إنساناً بعدم الرأس ، ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد .

وكذلك يقال : التسبيحات والتكبيرات من الصلاة ، وإن كانت لا تبطل بفقدها فالتصديق بالقلب من الإيمان كالرأس من وجود الإنسان إذ ينعدم بعدمه وبقية الطاعات كالأطراف بعضها أعلى من بعض .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**[٢١]**)**

والصحابة رضي الله عنهم ما اعتقدوا مذهب **المعتزلة** في الخروج عن الإيمان بالزنا ، ولكن معناه غير مؤمن حقاً إيماناً تاماً كاملاً ، كما يقال للعاجز المقطوع الأطراف : هذا ليس بإنسانٍ أي ليس له الكمال الذي هو وراء حقيقة الإنسانية.

٤- زيادة الإيمان ونقصه .

اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، فإذا كان التصديق هو الإيمان فكيف يتصور فيه زيادة ولا نقصان ؟!

قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ (الأنفال : ٢) ، وقال تعالى: ﴿ **ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم** ﴾(الفتح : ٤) ، فالإيمان يزيد وينقص بتأثير الطاعات في القلب وهذا لا يدركه إلا من راقب أحوال نفسه في أوقات المواظبة على العبادة ، والتجرد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور ، وإدراك التفاوت في السكون إلى عقائد الإيمان في هذه الأحوال حتى يزيد عقده استعصاءً على من يريد حله بالتشكيك .

---

[٢١] _ متفق عليه من حديث أبي هريرة.

بل من يعتقد في اليتيم معنى الرحمة إذا عمل بموجب اعتقاده فمسح رأسه وتلطف به أدرك من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل.

وكذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملاً مقبلاً أو ساجداً لغيره أحس من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة .

وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعود أثر الأعمال عليها فيؤكدها ويزيدها .

يقول **عليٌ كرم الله وجهه** : إن الإيمان ليبدو لمعةً بيضاء ، فإذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت حتى يبيض القلب كله ، وإن النفاق ليبدو نكتةً سوداء فإذا انتهك الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه ، فذلك هو الختم وتلا قوله تعالى: ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ (المطففين:١٤) .

إن أريد بالإيمان التصديق والعمل جميعاً كما قال صلى الله عليه وسلم : **(الإيمان بضع وسبعون باباً)**[٢٢] ، وكما قال صلى الله عليه وسلم: **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ)**[٢٣] وإذا دخل العمل في مقتضى لفظ الإيمان لم تخف زيادته ونقصانه.

فالإيمان يكمل بأعمال الطاعات قال الله تعالى: ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾(الحجرات : ١٥) ، وكذلك قال الله تعالى: ﴿ **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** ﴾ (البقرة :١٧٧) ، فشرط عشرين وصفاً كالوفاء بالعهد والصبر على الشدائد ثم قال تعالى: ﴿ **أولئك الذين صدقوا**﴾ وقد قال تعالى: ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ (

---

[٢٢] _ أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة .

[23] - أخرجه البخاري .

المجادلة : ١١)، وقال تعالى: ﴿ **لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا** ﴾ (الحديد : ١٠)، وقال صلى الله عليه وسلم : **(الإيمان بضع وسبعون باباً أدناها إماطة الأذى عن الطريق)**[٢٤] فهذا ما يدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال .

٥- ارتباط الإيمان بالبراءة عن النفاق والشرك الخفي.

وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الخفي فقوله صلى الله عليه وسلم: **(أربعٌ من كن فيه فهو منافقٌ خالصٌ وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمنٌ ، من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان ، وإذا خاصم فجر**[٢٥]) .

وقال **حذيفة** رضي الله عنه: المنافقون اليوم شرٌ منهم على عهد النبي فكانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه[٢٦] .

و كان **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر في المنافقين.

وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكماله ، وهو خفيٌ وأبعد الناس منه من يتخوفه وأقربهم منه من يرى أنه برىءٌ منه.

قيل **للحسن البصري**: يقولون أن لا نفاق اليوم؟ فقال: يا أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق.

وقال هو أو غيره: لو نبتت للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا.

وقال **الحسن**: إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب ، والسر والعلانية ، والمدخل والمخرج.

---

[24] سنن الترمذي : رقم ٢٦١٤

[٢٥] _ متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو.

[٢٦] _ أخرجه البخاري .

وقال **ابن أبي مليكة:** أدركت ثلاثين ومائة ،وفي رواية خمسين ومائة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخافون النفاق.

والنفاق نفاقان :

أحدهما : يخرج من الدين ويلحق بالكافرين ويسلك في زمرة المخلدين في النار .

والثاني : يفضي بصاحبه إلى النار مدةً ، أو ينقص من درجات عليين ويحط من رتبة الصديقين ، وأصل هذا النفاق تفاوت بين السر والعلانية ، والأمن من مكر الله ، والعجب وأمور أخر لا يخلو عنها إلا الصدّيقون.

٦- وجه قول السلف أنا مؤمن إن شاء الله.

ما وجه قول السلف: أنا مؤمن إن شاء الله ، والاستثناء شكٌ ، والشك في الإيمان كفرٌ ، وقد كانوا كلهم يمتنعون عن جزم الجواب بالإيمان ويحترزون عنه .

قال **سفيان الثوري** رحمه الله : من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين ، ومن قال أنا مؤمنٌ حقاً فهو بدعةٌ .

ولما قال سفيان ذلك قيل له: فماذا نقول ؟ قال : قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا

وقيل **للحسن** : أمؤمن أنت ؟ فقال : إن شاء الله ، فقيل له :لم تستثني يا أبا سعيد في الإيمان ؟ ، فقال : أخاف أن أقول نعم فيقول الله سبحانه: كذبت يا حسن فتحق علي الكلمة ، وكان يقول: ما يؤمنني أن يكون الله سبحانه قد اطلع علي في بعض ما يكره فمقتني وقال: اذهب لا قبلت لك عملاً فأنا أعمل في غير معمل

وقال **إبراهيم بن أدهم** : إذا قيل لك أمؤمنٌ أنت ؟ فقل : لا إله إلا الله ، وقال مرة : قل أنا لا أشك في الإيمان وسؤالك إياي بدعة.

وقال **الثوري** : نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وما ندري ما نحن عند الله تعالى .

فما معنى هذه الاستثناءات ؟

فالجواب أن هذا الاستثناء صحيحٌ وله أربعة أوجهٍ :

الوجه الأول: الاحتراز من الجزم خيفة ما فيه من تزكية النفس قال الله تعالى: ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ﴾(النجم : ٣٢) .

الوجه الثاني: التأدب بذكر الله تعالى في كل حالٍ ، وإحالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سبحانه فقد أدب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: ﴿ **ولا تقولن لشيءٍ إني فاعلٌ ذلك غداً إلا أن يشاء الله** ﴾(الكهف : ٢٣)

الوجه الثالث: الشك في كمال الإيمان لا في أصله ، وكل إنسانٍ شاكٌ في كمال إيمانه وذلك ليس بكفرٍ ، والشك في كمال الإيمان حقٌ من وجهين:

أحدهما : من حيث إن النفاق يزيل كمال الإيمان وهو خفيٌ لا تتحقق البراءة منه.

والثاني: أنه يكمل بأعمال الطاعات ولا يدري وجودها على الكمال .

الوجه الرابع: الخوف من الخاتمة فإنه لا يدري أيسلم له الإيمان عند الموت أم لا.

والعاقبة مخوفةٌ ولأجلها كان بكاء أكثر الخائفين ، فمن الذي يدري أنه من الذين سبقت لهم من الله الحسنى ؟!.